من أصرح بيانات القرآن في تعظيم أمر الجهاد

موجز في تفسير سورة «العاديات»

إعداد: سليمان بيضون

* السورة المائة في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد «العصر».
* سُمّيت بـ«العاديات» لابتدائها بقوله تعالى بعد البسملة: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾.
* آياتها إحدى عشرة، وهي مدنيّة، وقيل مكّية، وجاء في الحديث النبويّ الشريف: «من قرأها أُعطيَ من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جَمْعاً».

اختلف المفسرون في مكان نزول هذه السورة، كثير منهم اعتبرها مكّية، وجمع منهم قال إنها مدنيّة. إنّ قِصَر مقاطع الآيات، واستنادها إلى القَسَم، وتناولها موضوع المعاد قرائن تدلّ على مكّيتها. لكنّ مضمون القَسَم في السورة وارتباطه بمسائل الجهاد دلائل على مدنيّتها.

سبب النزول

روي أنّ سورة «العاديات» نزلت بعد واقعة «ذات السلاسل»، وكانت الحادثة على النحو التالي:

في السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم نبأ تجمّع اثني عشر ألف راكب في أرض «يابس» تعاهدوا على أن لا يقرّ لهم قرار حتّى يقتلوا الرسول صلّى الله عليه وآله وعليّاً عليه السلام، ويبيدوا الجماعة المسلمة.

وبعث النبيّ صلّى الله عليه وآله جمعاً من أصحابه إليهم فكلّموهم، ولكن دون جدوى. فأرسل عليّاً عليه السلام مع جمع غفير من المهاجرين والأنصار لمحاربتهم. فحثّوا الخطى إلى منطقة العدوّ، وطووا الطريق في الليل، فحاصروهم، وعرضوا عليهم الإسلام أوّلاً، وحين أبَوا شنّ المسلمون هجومهم والجوّ لمّا يزل في ظلام، ودحروا الأعداء، فقتلوا جماعة، وغنموا أموالاً كثيرة.

ونزلت سورة «والعاديات»، وجيوش الإسلام لم تصل إلى المدينة بعد، وفي ذات اليوم صلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله بالناس الغداة وقرأ السورة، فلمّا فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها، فقال صلّى الله عليه وآله: «**نعم، إنّ عليّاً ظفر بأعداء الله وبشّرني بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليلة**». فقدم عليّ عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسارى.

(تفسير الأمثل ج٢٠ ص٣٩١)

قال المفسّرون

قال في «تفسير الميزان» ما مختصره:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ الآية:١.

العاديات من العَدْو وهو الجري بسرعة، والضَبْح صوت أنفاس الخيل عند عدْوها، وهو المعهود المعروف من الخيل وإن ادُّعي أنّه يعرض لكثير من الحيوان غيرها، والمعنى: أقسمُ بالخيل اللاتي يعدون يضبحن ضبحاً. وقيل: المراد بها إبل الحاجّ في ارتفاعها بركبانها من الجمع إلى منى يوم النحر.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ الآية:٢.

الإيراء إخراج النار، والقدْح الضرب والصكّ المعروف. يقال: قدَح فأورى إذا أخرج النار بالقدح، والمراد بها الخيل تُخرج النار بحوافرها إذا عدَت على الحجارة والأرض المحصبة.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ الآية:٣.

الإغارة والغارة: الهجوم على العدوّ بغتة بالخيل، وهي صفة

أصحاب الخيل، ونسبتها إلى الخيل مجازٌ، والمعنى: فأقسم بالخيل الهاجمات على العدوّ بغتة في وقت الصبح.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ الآية:٤.

أثرن من الإثارة بمعنى تهييج الغبار ونحوه، والنقع الغبار، والمعنى: فهَيّجن بالعدْو والإغارة غباراً.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ الآية:٥.

وسَط وتوسّط بمعنى، وضمير ﴿بِهِ﴾ للصبح، والباء بمعنى في، أو الضمير للنقع والباء للملابسة. والمعنى: فصرن في وقت الصبح في وسط جمع، والمراد به كتيبة العدوّ، أو المعنى: فتوسّطن جمعاً ملابسين للنقع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ الآية:٦.

الكنود: الكفور، والآية كقوله: ﴿..إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ الحج:٦٦، وهو إخبار عمّا في طبع الإنسان من اتّباع الهوى، والانكباب على عرَض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربّه على ما أنعم عليه. وفيه تعريض للقوم المُغار عليهم، وكأنّ المراد بكفرانهم كفرانُهم بنعمة الإسلام التي أنعم الله بها عليهم وهي أعظم نعمة أوتوها، فيها طيب حياتهم الدنيا وسعادة حياتهم الأبدية الأخرى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ الآية:٨.

قيل: اللام في ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ للتعليل، والخير: المال، والمعنى: وإنّ الإنسان لأجل حبّ المال لَشديد أي بخيل شحيح. وقيل: المراد أنّ الانسان لَشديد الحبّ للمال، ويدعوه ذلك إلى الامتناع من إعطاء حقّ الله، والإنفاق في الله. كذا فسّروا. ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه، ويكون المراد أنّ حبّ الخير فطري للإنسان ثمّ إنّه يرى عرَض الدنيا وزينتها خيراً فتنجذب إليه نفسه ويُنسيه ذلك ربّه أن يشكره.

ارتباط قَسَم هذه السورة بأهدافها

بعث الله سبحانه الأنبياء لهداية الناس، فمنهم من يهتدي بكتابه وسنّته، فهذه الطائفة تكفيها قوّة المنطق، وثمّة طائفة أخرى لا تهتدي، بل تثير العراقيل في سبيل دعوة الأنبياء، فهداية هذه الطائفة رهن منطق القوّة، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ..﴾ الحديد:٢٥. فهذه الآية مؤلّفة من فقرتين: الفقرة الأولى التي تتضمّن البحث عن إرسال الرسل بالبيّنات وإنزال الكتب والميزان راجعة إلى من له أهليّة للهداية فيكفيه قوة المنطق.

والفقرة الثانية، أعني: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ فهي راجعة إلى من لا يستلهم من نداء العقل والفطرة ولا يهتدي، بل يثير الموانع، فلا يجدي معهم سوى الحديد الذي هو رمز منطق القوة.

وبذلك يُعلم وجه الصلة بين إنزال الحديد وإرسال الكتب، وبهذا تبيّن أيضاً وجه الصلة بين الأقسام والمقسم عليه، ففي الوقت الذي كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يعظ ويبعث رجال الدعوة لإرشاد الناس، اجتمعت طائفة لمباغتة المسلمين والهجوم على المدينة والإطاحة بالدولة الإسلامية الفتية، فبعث النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً عليه السلام مع سريّة، فأمر أن تُسرج الخيل في ظلام الليل وتعدّ إعداداً كاملاً، وحينما انفلق الفجر صلّى بالناس الصبح وشنّ هجومه وباشر، وما انتبه العدوّ حتى وجد نفسه تحت وطأة خيل جيش الاسلام، فهذه الطائفة لا يصلحهم إلّا العاديات، والموريات، والمغيرات التي تهاجمهم كالصاعقة.

(السبحاني، الأقسام في القرآن الكريم، ص١٩٠)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾

عباد الرحمن .. أهل الإيمان والعمل الصالح

العلّامة السيّد محمد حسين الطّباطبائي رحمه الله

جاء في بيان العلّامة الطباطبائي لهدف سورة «الفرقان» المباركة: «..فيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفّار على كون النبيّ صلّى الله عليه وآله رسولاً من جانب الله، وكون كتابه نازلاً من عنده «..» وقد استتبع ذلك شيئاً من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك، وذكر بعض أوصاف يوم القيامة، وذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة..».

وهؤلاء المؤمنين سمّتهم السورة «عباد الرحمن»، وذكرت لهم اثنتي عشرة صفة هي مجموعة من الاعتقاديات، والأعمال الصالحة، وما يتبع ذلك من مكافحة الشهوات، وامتلاك الوعي الكافي، والإحساس بالمسؤولية الاجتماعية.

وفيما يلي إضاءة العلّامة على هذه الجماعة المتميّزة التي ذكرتها السورة في تفسيره للآيات (٦٣ - ٧٦) منها، وذلك في الجزء الخامس عشر من في تفسيره «الميزان» الصفحات (٢٣٩ - ٢٤٥).

تذكر الآيات من محاسن خصال المؤمنين ما يقابل ما ورد في الآيات المتقدّمة من صفات الكفّار السيّئة. ويجمعها أنهم يدعون ربهّم، ويصدقون رسوله والكتاب النازل عليه قبال تكذيب الكفّار لذلك وإعراضهم عنه إلى اتّباع الهوى.

* قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الرحمن:٦٣.

لّما ذكر في الآية السابقة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ استكبارهم على الله سبحانه واستهانتهم بالاسم الكريم «الرحمن»، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين وسمّاهم «عباداً»، وأضافهم إلى نفسه متسمّياً باسم «الرحمن» الذي كان يحيد عنه الكفّار وينفرون. وقد وصفتْهم الآية بوصفين من صفاتهم:

أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، والهَون على ما ذكره الراغب التذلّل، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم، فهم في أنفسهم متذلّلون لربهّم ومتواضعون للناس لما أنهّم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حقّ، وأمّا التذلّل لأعداء الله إبتغاء ما عندهم من العزّة الوهميّة فحاشاهم. وإنّ كان الهَون بمعنى الرفق واللين، فالمراد أنهّم يمشون من غير تكبرّ وتبختر.

وثانيهما: ما اشتمل عليه قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾، أي إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم ممّا يكرهون أن يخاطَبوا به أو يثقل عليهم أجابوهم بما هو سالمٌ من القول، وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والإثم، ويرجع [ذلك] إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل. وهذه - كما قيل - صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس، وأمّا صفة ليلهم فهي التي تصفها الآية التالية.

* قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ الرحمن:٦٤.

البيتوتة إدراك الليل سواء نام أم لا، والمراد عبادتُهم له تعالى بالخُرور على الأرض والقيام على السُّوق، ومن مصاديقه الصلاة. والمعنى: وهم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهّم وقائمين يتراوحون سجوداً وقياماً، ويمكن أن يراد به التهجّد بنوافل الليل.

كان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا والخمر من أوّل ما ظهرت دعوته

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ الرحمن:٦٥-٦٦.

الغَرام ما ينوب الإنسان من شدّة أو مصيبة فيلزمه لا يفارقه، والباقي ظاهر.

* قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الرحمن:٦٧.

الإنفاق بذل المال وصرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره، والإسراف الخروج عن الحدّ ولا يكون إلّا في جانب الزيادة، وهو في الإنفاق التعدّي عمّا ينبغي الوقوف عليه في بذل المال. و«القَتْر» بالفتح فالسكون التقليل في الإنفاق، وهو بإزاء الإسراف، والقتر والإقتار والتقتير بمعنى. و«القَوام» بالفتح، الواسط العدل، وبالكسر [القِوام] ما يقوم به الشيء، وقوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ متعلّق بالقَوام، والمعنى: وكان إنفاقهم وسطاً عدلاً بين ما ذكر من الإسراف والقتر.

*قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ..﴾ الرحمن:٦٨.

إشارة إلى ما كان يفعله جهلة مشركي العرب، فإنّهم كانوا يرون أنّ دعاء آلهتهم إنّما ينفعهم في البَرّ، وأمّا البحر فإنّه لله لا يشاركه فيه أحد، فالمراد دعاؤه تعالى في مورد، كما عند شدائد البحر من طوفان ونحوه، ودعاء غيره معه في مورد، وهو البَرّ.

* وقوله: ﴿..وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ..﴾ الرحمن:٦٨.

أي لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرّم اللهُ قتلَها في حال من الأحوال إلّا حال تلبّس القتل بالحقّ، كقتلها قصاصاً وحَدّاً. وقوله تعالى: ﴿..وَلَا يَزْنُونَ..﴾ الآية، وقد كان شائعاً بين العرب في الجاهلية، وكان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا والخمر من أوّل ما ظهرت دعوته. وقوله: ﴿..وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ الآية، الأثام الإثم، وهو وبال الخطيئة، وهو الجزاء بالعذاب الذي سيلقاه يوم القيامة المذكور في الآية التالية.

* قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ الرحمن:٦٩.

أي يخلّد في العذاب وقد وقعت عليه الإهانة.

* قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الرحمن:٧٠.

استثناء من لقى الآثام والخلود فيه، وقد أُخذ في المستثنى التوبة والإيمان وإتيان العمل الصالح، أمّا التوبة وهي الرجوع عن المعصية -وأقلّ مراتبها الندم- فلو لم يتحقّق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيماً عليها، وأمّا إتيان العمل الصالح فهو ممّا تستقر به التوبة وبه تكون نصوحاً.

وأمّا أخذ الإيمان فيدلّ على أنّ الاستثناء إنّما هو من الشرك. وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ تفريع على التوبة والإيمان والعمل الصالح يصف ما يترتّب على ذلك من جميل الأثر وهو أنّ الله يبدّل سيّئاتهم حسنات. والذي يفيد ظاهر قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ وقد ذيّله بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أنّ كلّ سيّئة منهم نفسها تتبدّل حسنة، وليست السيّئة هي متن الفعل الصادر من فاعله، بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له. وهذه السيّئات لازمة للإنسان حتّى يؤخذ بها يوم تُبلى السرائر. ولولا شوب من الشقوة والمساءة فالذات لم يصدر عنها عمل سيّء، إذ الذات السعيدة الطاهرة من كلّ وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة، فالأعمال السيّئة إنّما تلحق ذاتاً شقيّة خبيثة بذاتها أو ذاتاً فيها شوب من شقاء خباثة.

ولازم ذلك إذا تطهّرت بالتوبة وطابت بالإيمان والعمل الصالح فتبدّلت ذاتاً سعيدة ليس فيها شوب من قذارة الشقاء، أن تتبدّل آثارها اللازمة التي كانت سيّئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً. وإلى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

الذات السعيدة الطاهرة من كلّ وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة

* قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ الرحمن:٧١.

المتاب مصدر ميمي للتوبة، وسياق الآية يعطي أنّها مسوقة لرفع استغراب تبدّل السيّئات حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنّها رجوع خاصّ إلى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدّل السيئات حسنات وهو الله يفعل ما يشاء. وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم فارقته.

* قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ الرحمن:٧٢.

أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنّه حقّ، فيشمل الكذب وكلّ لهو باطل كالغناء. فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ إن كان المراد بالزور الكذب، فالتقدير: لا يشهدون شهادة الزور. وإن كان المراد اللهو الباطل كالغناء ونحوه، كان المعنى: لا يحضرون مجالس الباطل. وذيل الآية يناسب ثاني المعنيين. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾، اللغو ما لا يُعتدّ به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي، ويعمّ -كما قيل- جميع المعاصي، والمراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو وهم مشتغلون به. والمعنى: وإذا مرّوا بأهل اللغو وهم يلغون مرّوا معرضين عنهم، منزِّهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم.

اللغو ما لا يُعتدّ به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي